بعد عودته الى [اسرائيل] بخمسة وثلاثين عاماً، لا يزال يتخذ نفس وسائل الحذر، وشخصياته مجرّد ملامح مميزة من الناحية القومية، لأنه ما زال يكتب باللغة العربية ذاتها. حتى ان الارضية محايدة. كل ذلك لأنه ظل يستخدم لغة غربته، على الرغم من انه تسلّق الى مركز مرموق في المؤسسة الاسرائيلية. افكاره متضاربة. وهو، كذلك، يعرف شيئاً ويقول شيئاً آخر. لو انه عكس، في قصصه، افكاره الحقيقية في المسألة اليهودية ـ العربية لأثار ضده جمهور قرائه. انه يخفي شيئاً يضطره الى ان يقول ما لا يفكر به. وشمّاس يخفي شيئاً هو الآخر؛ لكن ما يخفيه قد يجعله يدفع ثمناً باهظاً اكثر».

ومع ان المقالة، بجملتها، كانت موجهّة ضد انطون شمّاس، الذي يكتب بالعبرية، الّا ان المقالة احتوت على زبدة تفكير ومواقف الكاتب سامي ميخائيل، وأوضح لنا الكثير من مواقفه: «لكن القول بأن الصهيونية هي التي خلقت اللاجئين الفلسطينيين يعتبر حقيقة جزئية فقط. فتجربة يهود الدول العربية لا تقل صعوبة عن تجربة اللاجئين الفلسطينيين. والفرق كامن في ان يهود الدول العربية توصلوا الى تحسين حالتهم في مكان آخر، بينما يواصل اللاجئون الفلسطينيون الانتظار. وبعد خمس وثلاثين سنة على الهجرة الكبرى، لم تكتب القصة الحقيقية ليهود الدول العربية، الذين يشكلون، الى جانب نسلهم، نصف سكان اسرائيل.

«هـؤلاء اليهود القدامى لا يعيشون في فراغ: صحيح انه لم ينهض من بينهم شعراء يبكون شجرة الزيتون وبئر الماء المتروكة والاطفال الذين ضاعوا في الطريق، ولكنهم اضطروا الى ان يتركوا وراءهم... ممتلكات كثيرة... ومثلما انه لا يمكن تصوّر يافا وحيفا والقدس حتى قيام اسرائيل بدون عرب، فانه لا يمكن تصور الاسكندرية، وبغداد، وبيروت، وحلب، بدون اليهود الذين عاشوا فيها. اعرف انه في بغداد، على الاقل، عاصمة الخلافة العباسية، لم تتعطل الحركة التجارية في ايام الجمعة والآحـاد، وانما في ايام السبت بالذات. لم يكن العرب الفلسطينيون متداخلين في الحياة الثقافية والسياسية للاستيطان اليهودي في البلاد؛ ازاء ذلك، كان يهود مصر والعراق جزءاً عضوياً من مسيرة تلك البلدان حتى القرن العشرين». وبالطبع، لا نريد، هنا، في الدخول في نقاشات حول الفرق بين يهود العراق الذين تسلّموا المناصب العالية وذاقوا حلاوة العيش في العراق والدول العربية وبين اللاجئين الفلسطينيين الذين شردوا من وطنهم؛ لكننا نورد هذا الاقتباس لندلل على التفكير الذي يحمله سامي ميخائيل للدول العربية، وكيف تمّ اسقاطه على رواياته.

صدمة الواقع الجديد واسقاطاته على الماضي

اعتاد ميخائيل ان يقدّم الينا، في اعماله الروائية، رصيداً كبيراً من الاحداث الواقعية التي دارت في العالم العربي ـ العراق تحديداً ـ واسرائيل. وتجربة الكاتب المتعلقة بالعالم العربي تسجّلت في ثلاث روايات: «متساوون، ومتساوون اكثر»؛ و«عاصفة بين النخيل» (رواية للشبيبة)؛ و«حفنة من ضباب».

«متساوون، ومتساوون اكثر»

لا تنتمي روايـة ميخائيل الاولى «متساوون، ومتساوون اكثر» الى روايتيه الاخريين التي جاء فيهما وصف اوضاع يهود العراق («عاصفة بين النخيل» و «حفنة من ضباب»)، بل انها تقع في مرحلة الوسط: مرحلة القدوم الى اسرائيل، وما لاقاه يهود العراق، هنا، في المعبراه.

تصـوّر روايـة «متسـاوون، ومتساوون اكثر» مأساة اليهودي الشرقي وسياسة التمييز التي